النص القرآني المعجز

د.أحمد محمد كنعان

لقد أجمع أهل العقول السليمة على مرِّ الدهور وكرِّ العصور أن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن هذا الكتاب العظيم هو معجزة الله المسطورة الباقية حتى آخر الزمان؛ إلى جانب معجزته المنظورة في هذا الكون الفسيح الحافل بالآيات المبهرات .

وقد شاءت حكمته سبحانه أن تكون معجزة رسالته السماوية الخاتمة كتاباً يُقرأ لكي يظل معجزة دائمة للناس، على تعاقب الأيام والعصور، بخلاف معجزات بقية الأنبياء عليهم السلام التي كانت معجزات موقوتة ينقضي أثرها وإعجازها في زمانها، كما كانت مثلاً معجزة إحياء الموتى وإبراء المرضى على يدي نبي الله **عيسى بن مريم** عليه السلام ، وكما كانت معجزات نبي الله **موسى** عليه السلام، ومنها عصاه التي تنقلب حية تسعى، وغير ذلك من المعجزات التي شهدها تاريخ النبوات المختلفة، فتلك المعجزات كانت حجة على القوم المعاصرين لأولئك الأنبياء، وليست حجة على غيرهم ممن لم يشهدوها، أما معجزة الإسلام الخاتمة فقد شاء الله عز وجل أن تكون هذا الكتاب العظيم، وأراد به سبحانه ختم رسالاته السماوية، ونسخ به سائر الرسالات السابقة، وجعله المرجع الديني الأخير والوحيد لأهل الأرض إلى يوم القيامة، وقد تكفَّل الله عزَّ وجلَّ بحفظه حفظاً تاماً عن أي نقص أو زيادة أو تحريف أو نسيان، كما قال تعالى : **(إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُون)** سورة الحجر ٩ .

وقد أودع الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم من الآيات البيِّنات ما يدلُّ على إعجازه المتجدد على مرِّ العصور، ليكون حجة قائمة دائمة على العالمين إلى يوم الدين، وتُعَدُّ ظاهرة **"الإعجاز العلمي"** في القرآن الكريم - التي كثر الحديث عنها في السنوات الأخيرة - مثالاً ساطعاً على هذا الإعجاز المتجدد في القرآن الكريم، فقد تضمن هذا الكتاب العظيم حقائق كونية كثيرة لم يستطع العلم كشفها إلا في العصور الحديثة، بعد أن تطورت وسائل البحث العلمي، وبعد أن توافرت الأدوات والأجهزة والتقنيات الحديثة التي ساعدت في كشف هذه الحقائق، وكأن هذه الظاهرة قد جاءت مصداقاً لوصف الحق تبارك وتعالى لهذا الكتاب الكريم بقوله : **(إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ للعَالَمين * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)** سورة ص ٨٧ ـ ٨٨ ، أي لتعلمن صدق ما أخبركم به هذا الكتاب حيناً بعد حين؛ وفي هذا دليل مادي متجدد يشهد بصدق هذا الكتاب على مرِّ العصور، مهما تقدم العلم، ومهما كشف من أسرار هذا الوجود .

فرادة نصوص القرآن الكريم :

وبما أن القرآن الكريم يمثل الرسالة الخاتمة التي ستصاحب البشرية إلى قيام الساعة فقد امتازت نصوصه بخصائص فريدة جعلته صالحاً ليكون مصدراً للتشريع مهما تغيرت أحوال الناس، منذ نزوله وحتى قيام الساعة، ويشهد على هذه السمة عمل فقهائنا على مر العصور، ففي كل عصر يخرج علينا الفقهاء باجتهادات جديدة تضاف إلى ما انتهى إليه الفقهاء السابقون، أو تختلف عن اجتهادات السابقين؛ بالرغم من أن هؤلاء وأولئك قد انطلقوا من النصوص ذاتها، ويشهد أيضاً على هذه السمة الفريدة - في نصوص القرآن الكريم - تاريخ المفسرين الذين ظلوا في كل عصر يخرجون علينا بتفاسير جديدة تغاير تفاسير من سبقوهم[1] .

وغني عن البيان أن فهم وتأويل نصوص القرآن الكريم التي نزلت بلسان عربي مبين (***يتوقف على معرفة أساليب البيان في اللغة العربية، وطرق الدلالة فيها على المعاني، وما تدل عليه ألفاظها مفردة ومركَّبة.. ولهذا وضع علماء الأصول قواعد وضوابط هي في الحقيقة مستمدة من طبيعة اللغة العربية واستعمالاتها***)[2] .

ومع تسليمنا بأهمية هذه القواعد والضوابط التي وضعها الأصوليون للتعامل مع النص القرآني، فإن هذه القواعد - في تقديرنا - لا تكفي وحدها للإحاطة بمكنونات النص القرآني واستخراج كل ما فيه من كنوز المعاني والدلالات، وبما أن هذا الكتاب السماوي سيرافق البشرية حتى قيام الساعة فلابد أن يكون فيه من القابلية ما يجعله قادراً على الوفاء بمتطلبات الحياة البشرية وتقلباتها المختلفة وتطوراتها المستقبلية حتى قيام الساعة .

وهناك ملاحظة أخرى لابد من الوقوف عندها ملياً في هذا سياق الحديث عن فرادة النص القرآني، وهي أن القواعد التي وضعها الأصوليون لضبط التعامل مع هذا النص قد قيدت العقلية الأصولية بقواعد اللغة والنحو والصرف تقييداً جعل هذه العقلية تذهل عن الآفاق الواسعة الأخرى التي يتفرد بها هذا النص المعجز، وهذه الآفاق التي يمكن استثمارها لجعل هذا النص أكثر استجابة للتفاعل مع النوازل المستجدة على مر العصور، وبهذا تتحقق سمة الخلود التي تعد من أبرز سمات هذا الكتاب العظيم .

ومن المعلوم أن **التأويل** هو البحث العميق عما تنطوي عليه الألفاظ من معان دفينة، وقد ظل تأويل النصوص بعامة، ونصوص الوحي بخاصة، إشكالية محورية

---

[1] - لقد كان اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بتفسير القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، ولعل ابن عباس رضي الله عنه كان من أكثرهم اهتماماً بهذا الباب من علوم القرآن، أما أول تفسير كامل للقرآن الكريم فقد كتبه مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ) وسماه (التفسير الكبير) وقد حققه د.عبد الله شحاته في ٤ مجلدات تقع في ١٨٥١ صفحة [انظر مجلة إسلامية المعرفة، ص ٥٣ وما بعدها، السنة العاشرة ، العدد ٣٧ – ٣٨ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م]

[2] - د.وهبة الزحيلي : **أصول الفقه الإسلامي** ١٩٧/١ ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٧ .

عبر التاريخ، وفي مختلف الأمم والديانات السماوية، ونعتقد أن الجزء الأكبر من هذه الإشكالية يرجع إلى أن صاحب التأويل يظل أسيراً لمفاهيم عصره وثقافته، أي يظل أسير دائرة مغلقة يتعذر عليه الخروج عنها ليبصر تلك الأبعاد غير المتناهية التي يمكن أن يحملها النص، وبخاصة منه النص السماوي المتشبع بصفة الطلاقة التي يستمدها من طلاقة قدرة منزِّله سبحانه، ولهذا ظل يظهر ما بين عصر وآخر مفسرون جدد يحاولون مرة بعد مرة أن يقاربوا تلك الأبعاد غير المتناهية في النص ما جعل تاريخ التفسير حافلاً بالكثير من المدونات .

عصمة النص ونسبية التفسير :

وهنا وقفة لابد منها لبيان الفارق الكبير ما بين النص السماوي المقدس المعصوم، وبين التأويلات البشرية التي مهما توافر فيها من أصالة وعمق ودقة فإنها تظل عملاً بشرياً يمكن أن يعتريه ما يعتري أي عمل بشري آخر من قصور أو نقص أو عيوب، وهذا يعني أن مختلف التفاسير والتأويلات البشرية للنص السماوي تبقى عملاً بشرياً قد يقترب من مرامي النص وقد يبتعد عنها بمقدار ما يتمتع به المفسر من ملكات عقلية وبُعد نظر، ونعتقد أن هذا هو السبب في طرح إشكالية (**سلطة النص**) في العصر الحديث، التي أثارها بعض الباحثين، منهم على سبيل المثال **محمد عابد الجابري** (١٩٣٦ – ٢٠١٠) في كتابه **"تكوين العقل العربي - ١٩٨٢" !**

وسلطة النص التي قال بها الجابري وأمثاله، ترجع إلى الخلط ما بين النص السماوي نفسه وبين نصوص المفسرين التي – للأسف - تكتسب بمرور الوقت سلطة قاهرة على عقل المؤمن – من أي دين - فيصبح لا يرى في النص غير ما جاءت به هذه التفاسير، ويترسخ عنده الاعتقاد بأن الخروج عنها يعد خروجاً عن النص السماوي نفسه، وهذه نقطة دقيقة يجدر بنا أن نعيها جيداً، وإلا وقعنا – عن غير وعي - أسارى لهذه السلطة، ووقعنا في قبضة الماضي، وذهلنا عن متطلبات الحاضر والمستقبل، وحوَّلنا النص السماوي المطلق المفتوح على المستقبل إلى نص تاريخي مرتبط بزمن السلف .. نص عاجز عن مسايرة الزمن المتجه أبداً إلى المستقبل، وهذا ما وقع فيه فعلاً بعض الباحثين المتعجلين فقالوا بـ **"تاريخية النص"** نذكر منهم المفكر الجزائري **محمد أركون** (١٩٢٨- ٢٠١٠) ثم تابعه المصري **نصر حامد أبو زيد** (١٩٤٣ – ٢٠١٠) وغيرهما .

ومن المسلمات عند أهل اللغة والبيان والشريعة أن من أبرز الخصائص التي يتفرد بها النص القرآني غناه بالدلالات التي يمكن أن تسفر عن تأويلات متعددة لا تكاد تنتهي على مر العصور، وهذا ما جعل علماء اللغة يصفون القرآن الكريم بأنه

(سِفْرٌ مفتوحٌ على الزمانِ والمكانِ والإنسانِ، لا تَنْقَضي عَجَائِبُهُ، ولا يَخْلَقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولا يتوقفُ عطاؤهُ حتى تقومَ الساعةُ) [٣] .

وترجع هذه الخصائص في القرآن الكريم بصورة أساسية إلى أن معظم نصوصه ظنية الدلالة، أي تحتمل أكثر من معنى، وهذا ما أشار إليه **الإمام علي بن أبي طالب** رضي الله تعالى عنه حين وصف القرآن الكريم بأنه (**حمَّالٌ أوْجُهٍ**) أي تحتمل نصوصه أكثر من تأويل، وبسبب هذه السمة الغالبة في نصوص القرآن الكريم كان **الإمام عليٌّ** رضي الله تعالى عنه يرى أن **(القرآن صامت وإنما ينطق به الرجال)** ولعل هذا ما دفع بعض الفقهاء إلى القول بأن كل نصوص القرآن ظنية الدلالة وقابلة لتأويلات متعددة ما عدا ندرة نادرة منها ، كما ورد عن الفقيه الأندلسي **(ابن رشد)**[٤]، الذي قرَّر في كتابه **"الإحكام في أصول الأحكام"** أن الدين يقوم على أصول ثلاثة لا يجوز التأويل فيها قط ، وهي : الإقرار بوجود الله ، وبالنبوة، وباليوم الآخر، أي أمور العقيدة، أما ما عدا ذلك فقابل للتأويل .

ومما يؤيد قول القائلين بكثرة النصوص ظنية الدلالة في القرآن الكريم أن الأحكام الواردة في القرآن والمتفق عليها بين الفقهاء نادرة جداً، لأن ظنية الدلالة جعلت كلَّ فقيه يرى في النصِّ تأويلاً غير ما يراه الآخرون، وقد تبدو هذه الصفة في نصوص القرآن الكريم سلبية للوهلة الأولى، لأنها تؤدي لتعارض التأويلات، واختلاف الأحكام المستنبطة منها، ولأنها تفضي لاختلاف العلماء، وقد تفضي إلى تنازع الأمة وتفرقها، إلا أننا عند التدقيق في هذه الصفة نجدها على النقيض من ذلك تماماً؛ فهي التي تضفي على التشريع الإسلامي حيويته الفريدة، وتمده بالقدرة الدائمة على التفاعل المستمر مع تغيرات الزمان والمكان والأحوال ، وهي التي تفتح للعقل البشري الباب واسعاً للتحرك بنصوص القرآن، وتوفر للمفسر والفقيه مجالاً رحباً للاجتهاد واستنباط الأحكام التي تراعي حاجات الناس المتغيرة على مر العصور، وهذا ما أشار إليه بعض الفقهاء حين قالوا : ***(اعلَمْ أنَّ اللهَ لَمْ يُنَصِّبْ على جميعِ الأحكامِ الشَّرعيةِ أدلةً قطعيةً ، بل جَعَلَها ظنيةً للتوسيعِ على المكلَّفينَ، لئلا يَنْحَصِروا في مذهبٍ واحدٍ ، لقيامِ الدليلِ القاطعِ عليهِ)*** [٥] .

واختيار الله عزَّ وجلَّ للغة العربية من بين آلاف اللغات البشرية الأخرى لتتجلى كلماته في هذا الكتاب العظيم يدلُّ دلالة دامغة على ما تتمتع به اللغة العربية من إمكانيات تعبيرية وبلاغية فريدة لا تتوافر في بقية اللغات، بل إن ***(اختيار العربية لتكون لغة التنزيل للخطاب السماوي، أو لتكون لغة خطاب الله الأخير إلى البشر، له دلالته من أكثر من وجه، فإذا سلَّمنا أنَّ من مقتضى الخاتمية، أو من لوازمها، الخلود - والخلود يعني : التجرُّد عن قيود الزَّمان والمكان، والقدرة على العطاء والإنتاج العلمي والمعرفي، في كلِّ زمان ومكان -***

---

[٣] - عبد الرحمن بودرع (٢٠٠٦) : **منهج السياق في فهم النص**، ص ١٦ ، كتاب الأمة ، العدد ١١١ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر .

[٤] **- ابن رشد** ، **أبو الوليد محمد بن أحمد** (٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ) : فقيه وفيلسوف وطبيب، عاش في مدينة قرطبة إبان ازدهار الإسلام في الأندلس ، وبلغ شأواً عظيماً في الفقه والطب والفلسفة، من مصنفاته : (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) الذي يُعَدُّ من المراجع القيمة في الفقه ، و (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) و (تهافت التهافت) الذي عارض فيه الإمامَ الغزالي في الفلسفة ، و (الكليات) في الطب .

[٥] - الإمام الشوكاني (**إرشاد الفحول**) ص ٢٤١ .

أدركنا خلود اللغة العربية، وسعتها، ومرونتها، وقدرتها على تقديم الأوعية التعبيرية، والاستجابة لكل الظروف والأحوال التي يكون عليها الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري ، في سائر العلوم والفنون، حتى يرث الله الأرض ومن عليها)[٦] .

وقد توقف بعض المفسرين عند ظاهرة الظنية في دلالات النصوص العربية بوجه عام، وفي نصوص القرآن الكريم بوجه خاص، فانتهوا إلى أن هذه الظنية تعدُّ من أبرز أوجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وفي هذا يقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى : (***لو كانَ القرآنُ كلُّه مُحْكَماً لما كانَ مُطابقاً إلا لمذهبٍ واحدٍ، وكان بصريحِهِ مُبطِلاً لكلِّ ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما يَنْفِرُ أربابُ سائرِ المذاهبِ عن قَبولِهِ والنَّظرِ فيه والانتفاعِ بِهِ، فإذا كانَ مُشْتملاً على المُحْكَمِ والمُتَشابِهِ طَمِعَ صاحبُ كلِّ مذهبٍ أنْ يجدَ فيهِ ما يُؤَيّدُ مذهبَهُ وينصرُ مقالَتَهُ، فينظرُ فيه جميعُ أربابِ المذاهبِ، ويجتهدُ في التأملِ فيه صاحبُ كلِّ مذهبٍ، وإذا بالغوا في ذلكَ صارت المُحْكَماتُ مُفَسّرةً للمتشابهات***)[٧] ، ولاحظ معي هذه الالتفاتة البليغة التي أشار إليها الإمام السيوطي، وهي أن ظنية الدلالة بما تثيره عند دارسي القرآن الكريم من نظرات مختلفة فإنها توصلهم في نهاية المطاف إلى تفسير ما تشابه منه، وهي مسألة طالما شغلت بال العلماء !

وبهذا تظهر لنا الحكمة الإلهية في جعل أكثر نصوص القرآن الكريم ظنية الدلالة، فهذه السمة هي التي جعلت القرآن الكريم أهلاً للتفاعل مع متغيرات الواقع، مفتوحاً دوماً على المستقبل، وفي هذا تيسير على الناس، ورفع للحرج عنهم، مهما تبدلت أحوالهم وتعاقبت عصورهم .

ونسارع هنا إلى القول : إن ظنية الدلالة لا تعني أن نصوص القرآن الكريم مفتوحة للتأويل دون ضوابط، وإلا راح كل أحد يؤل النصوص على هواه ليضفي الشرعية على مذهبه ويولد من النصوص المعنى الذي يوافق هواه، ولا شك بأن في هذا المسلك تعسُّف واضح في التعامل مع النصوص، وقد ناقش الإمام الفقيه **"ابن رشد"** هذه المسألة في كتابه **"فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال"** ووضع لها ثلاثة شروط نلخصها فيما يلي :

- **الشرط الأول:** احترام خصائص الأسلوب العربي في التعبير ، إذ التأويل ليس شيئاً آخر سوى إخراج اللفظ من الدلالة الحقيقية أو الظاهر ، إلى الدلالة المجازية أو الباطن ، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عودت في تعريف أصناف الكلام المجازي
- **الشرط الثاني:** احترام الوحدة الداخلية للقول الديني ، فلا يجوز تضمينه أشياء غريبة عن مجاله التداولي الأصلي كما كان يتحدد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم .
- **الشرط الثالث:** مراعاة المستوى المعرفي لمن يوجه إليه التأويل[٨] .

---

٦ - د. إبراهيم السامرائي : **في شرف العربية**، ص ١٩ ، وهذا الشاهد مأخوذ من تقديم عمر عبيد حسنة للكتاب

٧ - القاضي أبو بكر الباقلاني : **إعجاز القرآن** ، بهامش (**الإتقان في علوم القرآن**) للسيوطي ١٣/٢ .

٨ - انظر : فصل المقال ، ٣/ ١٦ .

وقد انتهى الإمام الفقيه (**ابن حزم**)[٩] إلى مثل هذه النتيجة ، فقال : (***فلا يَحِلُّ لأحَدٍ صَرْفُ لفظةٍ معروفةِ المعنى في اللغةِ عن معناها الذي وُضِعَتْ لهُ في اللغةِ التي بها خاطَبَنا اللهُ تعالى في القرآنِ ، إلى معنى غير ما وُضِعَتْ لهُ ، إلا أنْ يأتيَ نَصُّ قرآنٍ أو كلامٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماعٌ من علماءِ الأمَّةِ كلِّها على أنها مصروفَةٌ عن ذلك المعنى إلى غيره ، أو يُوجِبُ صَرْفَها ضَرورةُ حِسٍّ أو بَديهَةُ عقلٍ ، فيُوقَفُ حينئذ عند ما جاءَ من ذلك***)[١٠]

أما (**الإمام الزركشي**)[١١] فقد قدَّم تفصيلاً مختلفاً لهذه الإشكالية البيانية في نصوص القرآن الكريم ، فجعل للتأويل عدة مستويات ، وذهب إلى أن من النصوص ما يحتاج تأويله إلى معرفة بلغة العرب التي بها نزل القرآن الكريم ، ومنها ما لا يُعذر أحد بجهالته ، لأن تأويله لا يلتبس على أحد من الناطقين بالعربية سواء كان عالماً باللغة أم عامياً ، ومنها ما يحتاج تأويله إلى علماء مجتهدين تتوافر فيهم أدوات اللغة والفقه والأصول .. وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل ، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه[١٢] .

ومع موافقتنا على هذه الشروط التي وضعها هؤلاء الأئمة الأعلام لضبط التعامل مع النصوص بعامة ، ونصوص القرآن الكريم بخاصة، فإننا نرى أن هذه الشروط غير كافية لإدراك مختلف المعاني والمقاصد التي قد ينطوي عليها النص ، ولهذا فإننا نقترح بعض الشروط الإضافية التي نلخصها على النحو الآتي :

- **الشرط الأول:** أن ننظر إلى نصوص القرآن الكريم؛ وبخاصة منها نصوص الأحكام في ضوء معطيات العلوم المعاصرة، كما حصل في ظاهرة الإعجاز العلمي في ما يتعلق بالنصوص المتعلقة بالظواهر الكونية .
- **الشرط الثاني:** أن ننظر إلى النصوص في ضوء الواقع، مستفيدين من نتائج العلوم الإنسانية الحديثة ، مثل علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم البشريات (الإنثروبولوجيا)[١٣] وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء ..

---

[٩] - **ابن حزم ، علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الأندلسي** (٣٨٤ - ٤٥٦هـ) : فقيه محدث مؤرخ ، تولى الوزارة لعدد من الخلفاء ، اشتهر بمذهبه الظاهري في الفقه، وشهد له الأئمة الكبار بالعلم ، وامتاز بنزعته النقدية العقلانية التي تتمسك بالنص ولا تغفل دور العقل في فهمه، وقد ألف كتباً كثيرة في علم الكلام والعقائد والفلسفة، منها (الإحكام في أصول الأحكام) و (إبطال القياس والرأي والتقليد والتعليل) و (مسائل أصول الفقه) و (التقريب في حدود المنطق)

[١٠] - انظر : الإحكام في أصول الأحكام ٥٠/٣ .

[١١] - **الزركشي ، محمد بن بهادر بن عبد الله ، أبو عبد الله ، بدر الدين** (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ) : فقيه شافعي أصولي، ولد وتوفي في مصر، له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها : (البحر المحيط) في أصول الفقه ، و (الديباج في توضيح المنهاج) في الفقه ، و (المنثور) الذي يعرف بقواعد الزركشي، و (البرهان في علوم القرآن) الذي يعد أول كتاب في هذا الباب .

[١٢] - انظر : البرهان في علوم القرآن ١٦٥/٢ وما بعدها .

[١٣] - **الأنثروبولوجيا** (Anthropology) : علم يدرس الظواهر التي تتعلق بالجنس البشري، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأنثروبولوجيا الطبيعية والاجتماعية والثقافية، فالطبيعية تدرس النمو الجسماني للإنسان من ناحية التطور وتشمل علم الأحافير البشرية وعلم الأجناس البشرية، أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية فتدرس النظم البشرية

وغيرها من العلوم المعاصرة التي يمكن أن تضيء لنا جوانب جديدة في تأويل النصوص

- **الشرط الثالث:** أن نتعامل مع النصوص على أنها منظومات يرتبط بعضها ببعض بروابط عضوية لا يجوز تجاهلها بحال من الأحوال ، وإلا وقعنا في فخ النظرة التجزيئية للنصوص، ومن ذلك مثلاً النظر إلى بعض النصوص التي تتعلق بأحكام الأحوال الشخصية بمعزل عن بقية النصوص التي تتعلق بهذه الأحوال، مما ينتهي بنا إلى أحكام متعارضة، ولكي نتجنب هذا التعارض ينبغي أن نتعامل مع النصوص المتعلقة بها باعتبارها نصوصاً تنتسب إلى حقل واحد .
- **الشرط الرابع:** وضوح العلاقة ما بين النص والعقل ، بصورة لا يطغى فيها العقل على النص أو يلغيه ، ولا يطغى النص على العقل فيهمشه، إذ لا يمكن فهم النص وإدراك مقاصده إلا بالعقل.
- **الشرط الخامس:** حرية الرأي، وفتح الحوار بين الآراء العلمية المختلفة ليعبر كل منها عن رؤيته في النص، بشرط أن يلتزم صاحب كل رأي بالقواعد المتعارف عليها في أصول البحث العلمي، ويكون الترجيح في نهاية المطاف للرأي الذي يحوز الأغلبية، أو رأي الجمهور حسب التعبير الأصولي .

<u>القرآن وآيات الآفاق والأنفس :</u>

ونعود هنا إلى ظاهرة (**الإعجاز العلمي**) في القرآن الكريم التي أشرنا إليها آنفاً، وباتت تلقى اهتماماً كبيراً في السنوات القليلة الماضية، فقد فتحت الاكتشافات العلمية الحديثة أذهان الدارسين للقرآن الكريم على ساحات جديدة من الفهم والتأويل لم تكن تخطر على البال قبل هذه الاكتشافات، وأصبح فهمنا اليوم للآيات التي تحدثت عن الظواهر الكونية أكثر وضوحاً مما كان في الماضي، ومنها على سبيل المثال الآيات التي تحدثت عن السماوات والأرض وبقية الأفلاك، فقد ساد الاعتقاد في الماضي أن الأرض هي مركز الكون بما أنها محضن الإنسان "الخليفة" حامل الأمانة، وأن الشمس وسائر الأفلاك الأخرى هي التي تدور حول الأرض، وساد الاعتقاد بأن الأرض منبسطة لا كروية، وأن الشمس عندما تغيب تسقط في البحر لتشرق من البحر الآخر ... إلى غير ذلك من الاعتقادات التي أثبت العلم الحديث بطلانها التام .

وقد أدى الفهم الخاطئ لهذه الظواهر فيما مضى إلى تأويلات غير صحيحة لنصوص الكتب السماوية، فمن المعلوم تاريخياً أن أرباب الكنيسة في القرون الوسطى في أوروبا قد نكَّلوا بعلماء الفلك الذين قالوا بكروية الأرض ودورانها حول الشمس ،

الاجتماعية دراسة مقارنة، أما الأنثروبولوجيا الثقافية فتدرس عادات الشعوب وتقاليدها دراسة تاريخية، وهي تشمل الأركيولوجيا التي تدرس ثقافات ما قبل التاريخ، والثقافات البائدة، والأثنولوجيا التي تدرس الثقافات الإنسانية الحالية لفهم مشكلاتها ومحاولة إصلاحها ، وهي الأنثروبولوجيا التطبيقية [انظر : الموسوعة العربية الميسرة]

لأن أرباب الكنيسة كانوا يؤلون نصوص الكتاب المقدس على نحو مغاير تماماً لما قال به علماء الفلك، ثم أثبت الرصد الدقيق للأجرام السماوية أن العلماء كانوا على صواب، وأن أرباب الكنيسة كانوا خاطئين **!**

وقد وقع في هذه الإشكالية نفسها بعض علمائنا الأقدمين الذين أوَّلوا الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم تأويلات لم يحالفها الصواب، واقرأ معي إن شئت ما سطَّره شيخ الإسلام (**ابن تيمية**)[١٤] في **"الرسالة العرشية"** وكذلك ما انتهى إليه الإمام (**القرطبي**)[١٥] عند تفسير قوله تعالى : **(وَهُوَ الذي مَدَّ الأرضَ وَجَعَلَ فيها رواسيَ وأنهاراً** .. الآية) سورة الرعد ٣ ، فقد كتب يقول : (***في هذه الآية ردٌّ على من زعم أن الأرض كالكرة .. والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدِّها ، وأن حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبها***)[١٦] .

وقد يكون لابن تيمية والقرطبي وغيرهما من علماء السلف عذرهم فيما ذهبوا إليه حول الآيات التي تتحدث عن الظواهر الكونية لأن حصيلة عصورهم من العلوم الكونية كانت ضئيلة جداً، لكن كيف نعذر اليوم الذين يتجاهلون حقائق العلم، ويتعاطون مع نصوص الوحي بالمنطق الذي سار عليه الأقدمون **؟!**

واستمع معي إن شئت إلى ما كتبه أحد المفسرين المعاصرين في أواخر القرن العشرين الميلادي بعد أن دارت المركبات الفضائية حول الأرض، وبعد أن هبط الإنسان على سطح القمر (عام ١٩٦٩) وذلك تعليقاً على ما كتبه صاحب **"الظلال"** في معرض تعقيبه على قوله تعالى : **(والأرْضَ وَضَعَهَا للأَنامِ)** سورة الرحمن ١٠ ، فقد كتب صاحب الظلال يقول : (***إن الأرض ما هي إلا هباءة سابحة في فضاء الله الوسيع ، هباءة تسبح في الفضاء المطلق ، تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة ، وتسبح مع هذا حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة ، بينما هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها في هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة ، متجهة في اتجاه واحد ، نحو برج الجبار في السماء***)[١٧] ، وقد رد عليه الناقد قائلاً : (الكلام على هذا من وجوه :

- **الوجه الأول :** قوله إن هي إلا هباءة سابحة في فضاء الله . أقول : هذا قول باطل خلاف ما أخبر الله به من كون الأرض قراراً ومهاداً وإرسائها بالجبال وغير ذلك .

---

[١٤] - **ابن تيمية ، تقي الدين أبو العباس أحمد** (ت ٧٢٨هـ) : ولد في جنوب دمشق ، كان فقيهاً محدِّثاً وناقداً محققاً وقد ناظر وجادل وأفتى ولمَّا يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره ، يعد من المجددين في تاريخ الفقه الإسلامي، عرف بالشجاعة في الدفاع عن الحق فصار له خصوم كثيرون أغروا به الحكام فسجنوه أكثر من مرة في مصر ثم في الشام حيث ظل في سجن القلعة حتى مات ، من أشهر مصنفاته (الفتاوى) الذي يقع في ثلاثين مجلداً ويدل على مدى تبحره في العلوم المختلفة .

[١٥] - **القرطبي ، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح** (ت ٦٧١ هـ) : ولد في قرطبة ، وكان من كبار المفسرين، اشتهر بالصلاح والتعبد ، ورحل إلى المشرق واستقر في منية ابن الحصيب شمالي أسيوط بمصر ، وفيها توفي، من أشهر تصانيفه: الجامع لأحكام القرآن .

[١٦] - القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٨٠/٩ .

[١٧] - سيد قطب : في ظلال القرآن ٣٤٥٠/٦ .

- **الوجه الثاني :** قوله تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة. هذه دعوى باطلة خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع من ثبوت الأرض وسكونها .
- **الوجه الثالث :** قوله وتسبح مع هذا حول الشمس بسرعة ثابتة ، ولا تطلع وتغرب إلا بدوران الأرض حولها . وهذا كفر وتكذيب لصريح القرآن والسنة ، قال تعالى : ((والشَّمسُ تجري لمستقرٍّ لها ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ)) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((إذا طَلَعَ حاجِبُ الشَّمسِ فأخِّروا الصَّلاةَ حتى ترتفعَ ، وإذا غابَ حاجبُ الشَّمسِ فأخِّروا الصَّلاةَ حتى تغيبَ)) متفق عليه .
- **الوجه الرابع :** قوله المجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها في هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة . أقول تقدم في غير موضع رد هذا القول وأنه لا حقيقة له .
- **الوجه الخامس:** قوله متجهة في اتجاه واحد نحو برج الجبار في السماء. جوابه أن يقال ما هذا البرج المضاف إلى الجبار **؟!** إن هذا كلام من لا يدري ما يقول ولم يرد في الشرع برج الجبار، والبروج إنما وردت مجموعة كما قال تعالى : ((والسَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ)) ، وقال تعالى : ((تباركَ الذي جعلَ في السَّماءِ بُرُوجاً)) ، أفلا تراها مطردة بلفظ الجمع ، ولم ترد في موضع واحد بلفظ الإفراد ، ولم ترد مضافة إلى الجبار كما حكاه هذا الغالط ، فعلم أنه باطل)[١٨] !

ونلاحظ في هذا التعليق من الناقد أنه لا يعيش عصرنا، ولا يدري ما يجري فيه ، وهو للأسف الشديد يتذرع بنصوص الكتاب والسنة ، ويفسرها على ظاهرها، مكرراً ما قالته التفاسير القديمة وما قاله أهل الكتاب قديماً، دونما اعتبار لما توصل إليه العلم الحديث من حقائق باتت اليوم بحكم اليقين !

إن هذه الأمثلة ـ وأشباهها كثيرة في القديم والحديث ـ تؤكد الحاجة للتأني بالتعامل مع نصوص الوحي، لأن معظم هذه النصوص ظنية الدلالة وتحتمل أكثر من معنى كما يقر بذلك أهل اللغة وأهل التفسير وأهل الفقه، بل إن النصوص التي تبدو للوهلة الأولى قطعية الدلالة قد لا تكون كذلك عند التأمل العميق فيها، وحتى لو سلمنا بأنها قطعية الدلالة فإن دلالتها الظاهرة لا تعني بالضرورة أننا أدركنا كل أبعادها، بدليل الأمثلة السابقة التي تناول فيها المفسرون نصوصاً تبدو في ظاهرها قطعية الدلالة، ثم أثبتت الكشوف العلمية اللاحقة أنها ليست كذلك، ولهذا السبب فسرها المفسرون قديماً تفسيرات لم يحالفها الصواب .

ونخلص من هذا إلى أننا لن ندرك المعنى الحقيقي للنص ما لم نراوح النظر ما بين النص وآيات الآفاق والأنفس لكي نستشف من خلال هذه المراوحة الأبعاد المختلفة التي يرمي إليها النص، ولا بأس أن نورد هنا مثالاً آخر لتوضيح هذه الفكرة بصورة أوسع، فإن قوله تعالى **(والسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ * والأرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ)** سورة

[١٨] ـ عبد الله بن محمد الدويش : **المورد الزلال في التنبيه على أخطاء تفسير الظلال** ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

الطارق ١١ ـ ١٢ ، كان يفسره المفسرون في الماضي على أن السماء ترجع المطر بعد أن يتبخر الماء من الأرض ويرتفع إلى عنان السماء ويشكل الغيوم، وأن الأرض تتصدع عن النبات الذي يشق طبقات التربة ويخرج من البذرة ليصبح أشجاراً وثمارا[١٩] .

أما اليوم، في ضوء المعلومات العلمية الحديثة، أصبحنا نعرف أن للسماء رجعاً آخر غير المطر، فهي ترجع إلينا الموجات الكهرومغناطيسية التي ترسلها محطات الراديو والتلفزيون نحو السماء، وبهذا نتمكن من إعادة استقبال هذه الموجات لنستمع إلى المذياع، ونرى القنوات التلفزيونية الفضائية ، ونتحدث عبر الهاتف الجوال (Mobile) وليس هذا فحسب فإن للسماء رجعاً آخر ربما يكون أهم من كل أشكال الرجع التي ذكرناها، فالغلاف الجوي للأرض يعكس الأشعة الكونية القاتلة التي ترد إلينا من الشمس ومن بقية الأجرام السماوية، فيردُّها ويرجعها على أعقابها باتجاه الفضاء الخارجي، وبهذا يحمي الله الأرض والنبات والحيوان والإنسان وسائر المخلوقات الحية من الموت المحقق !

أما قوله تعالى : **(والأرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ)** فقد اكتشف العلماء في السنوات القليلة الماضية أن قشرة الأرض مزروعة بالصدوع العميقة التي تمتد في أعماق البحار والمحيطات لمسافات شاسعة تبلغ آلاف الكيلومترات ، وأن هذه الشقوق تشكل منافذ للحمم البركانية التي تستعر وتتلظى في جوف الأرض ، ولولا هذه الشقوق لاحتقنت الأرض بهذه الحمم وارتفع الضغط داخلها فانفجرت كالقنبلة الذرية ، فالأرض على هذه الحال أشبه بالقِدْر البخاري الذي نستخدمه في مطابخنا لطهي الطعام ، ففي هذا النوع من القدور نلاحظ وجود فتحة لتنفيس البخار الناتج عن ارتفاع درجة حرارة الطعام ، ولو أن هذه الفتحة انسدت واحتبس البخار داخل القدر لاحتقن الضغط فيه وانفجر بعنف كالقنبلة !

وهكذا اكتشفنا في النص القرآني نفسه تأويلات جديدة لم تخطر ببال المفسرين القدامى الذين لم تتوافر لهم المعلومات العلمية التي توافرت لنا اليوم .

ورب قائل يقول : إن للمفسرين الأقدمين عذرهم في عدم إدراك هذه المعاني التي أصبحنا نعرفها اليوم بفضل الاكتشافات العلمية الحديثة ، لأنهم كانوا ينظرون إلى النصوص على ضوء الحصيلة العلمية المتواضعة التي كانت في عصرهم ، وإذا ما وقعت منهم أخطاء فإن لهم فيها العذر ، بل إنهم مأجورون على اجتهادهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : **(إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهدَ ثمَّ أصابَ فلهُ أجْران ، وإذا حَكَمَ فاجتهدَ ثمَّ أخطأ فلهُ أجرٌ)**[٢٠] .

فنقول : هذا صحيح ، ونحن نعذر أولئك المفسرين فيما ذهبوا إليه قديماً، لكن المشكلة أن هذا المنطق في التعاطي مع النصوص مازال قائماً عند بعض المفسرين والفقهاء حتى اليوم، كما رأينا آنفاً عند ناقد (الظلال) !

---

[١٩] - انظر : القرطبي (**الجامع لأحكام القرآن**) ج ٢٠ ، ص ١٠ ـ ١١ .
[٢٠] - أخرجه البخاري ٧١٨٧ ، ومسلم ٤٤٤١ .

ولحسن الحظ فإن مثل هؤلاء المنفصلين عن واقع العلم أصبحوا اليوم من الندرة ما يجعلنا لا نتوقف عندهم طويلاً، إلا أننا نريد استثمار هذه النتيجة على ضوء قوله تعالى : **(قُلْ سيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِنْ قبلُ)** فكما تعلمنا من الأخطاء التي وقع بها المفسرون القدامى عند تفسيرهم لآيات الآفاق والأنفس، وأعدنا النظر في تفسيراتهم على ضوء المكتشفات العلمية الحديثة، فإن علينا اليوم أن نعيد النظر في آيات الأحكام على ضوء ما كشفته لنا العلوم الحديثة من معلومات لم تكن معلومة لمن سبقونا، مثل علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم البشريات (الأنثروبولوجيا) وعلم الاقتصاد، وغيرها من العلوم التي غيرت النظرة التقليدية لكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المعاصرة (***فعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم الإنسانية تشتمل على قوانين هي أقرب إلى الحقيقة العلمية الموضوعية ، وهو ما يرشحها لأن تكون وسيلة صالحة لتحديد ما فيه خير الإنسان ونفعه ، ومن ثم فإنها تصبح أداة مهمة للمسلم في اجتهاده لتقدير مصلحة الإنسان في خضم الأوضاع التي انقلبت إليها حياته اليوم***)[٢١] .

هذا إلى جانب استطلاع الرأي العام في القضايا الاجتماعية، والتعرف على اتجاهات هذا الرأي، وأخذ ذلك بالحسبان عند تقرير الأحكام المتعلقة بالقضايا الراهنة، لكي تكون هذه الأحكام أكثر ملاءمة لواقع الناس، ويكونون أكثر قبولاً لها .

وبناء على هذه الرؤية يمكن تشبيه عمل المفسر بعمل الغواص الذي كلما كان لديه المزيد من الأكسجين كلما استطاع أن يغوص أكثر وأكثر في أعماق البحار، وكذلك المفسر كلما كانت حصيلته من العلوم الإنسانية أوفر كلما استطاع أن يغوص أكثر فأكثر في أعماق النصوص ليستخرج منها اللآلئ والكنوز الثمينة .

ونظراً لأن فهم الواقع فهماً صحيحاً يؤثر تأثيراً كبيراً في عملية الاجتهاد فقد نبه كثير من الأئمة المتقدمين إلى أهمية فهم الواقع في تحقيق مقاصد الشريعة، ومنهم الإمام **أحمد بن حنبل** رحمه الله الذي ذهب إلى أنه لا ينبغي للرجل أن ينصِّب نفسه للفتوى حتى يكون فيه خمس خصال ، ذكر منها (**معرفة الناس**) التي هي من أهم دعائم الفتوى، وانتهى إلى أن المفتى ينبغي أن يكون فقيهاً بمعرفة أحوال الناس وعوائدهم وعرفياتهم، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال[٢٢]، إلا أن تحقيق هذا الشرط في تاريخنا الفقهي قلما توافر إلا عند ندرة نادرة من الفقهاء.

ولعل من أبرز (***مظاهر أزمة الاجتهاد اليوم أيضاً ، أن التركيز في شروط أهلية الاجتهاد انصرف في معظمه إلى معرفة وفقه النص في الكتاب والسنة ، أو إلى تحرير النص وبيان صحته ، وهذا المطلب أو هذا الفقه لا شك أنه من الأبجديات التي لا تتحقق القراءة والكسب إلا بها ، ولا تتوفر المعايير والموازين للأشياء إلا فيها ، ولكن هناك جانباً آخر بشكل عام وهو فهم أو فقه محل النص وموطن تنزيله إلى جانب فقه النص ، أي لابد من فقه النص***

---

[٢١] - د. عبد المجيد النجار : **في فقه التدين ، فهماً وتنزيلاً** ، ١٠٨/١ .
[٢٢]- انظر : الإمام ابن القيم (**إعلام الموقعين**)

وفهم الواقع الذي يراد للنص أن يقوِّمه وينزِّل عليه ، وفي هذا لا يكفي حفظ النصوص ، بل لعلنا نقول : إن فقه النص لا يتوفر على حقيقته إلا بفهم الواقع) [٢٣] .

ومن هذا المنطلق وجدنا **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه لم يقسم سواد العراق على الفاتحين ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين قسم خيبر بين الفاتحين ، بل رأى عمر من خلال نظرته العميقة لما طرأ على واقع المسلمين من أحوال أن تظل الأراضي بأيدي أصحابها ويأخذ منهم الخراج ليكون مدداً دائماً للمسلمين .

ومن ذلك أيضاً أن عمر رضي الله عنه أمضى الطلاق بالثلاثة طلاقاً بائناً ، وكذلك التطليقات الثلاث بألفاظ متفرقة في مجلس واحد، على غير ما كان من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، بسبب ما رآه عمر من تغير واقع الناس وتساهلهم بالطلاق، واستعجالهم فيه، فأراد أن يردعهم فشدد عليهم .

ومنها أيضاً أن الإبل الضالة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت تترك لا يمسها أحد حتى يأتي صاحبها فيأخذها، فلما كان عهد **عثمان بن عفان** رضي الله عنه أمر بتعريفها، فإن لم يأت صاحبها خلال فترة محددة بيعت ، فإذا جاء أعطي ثمنها .

والأمثلة كثيرة ومعروفة من عمل الصحابة رضوان الله عليهم في تغير فتواهم بما يناسب تغير الواقع والأحوال، ولكن على الرغم من هذه الشواهد التي نجد لها نظائر كثيرة في سيرة السلف الصالح، والتي تدل دلالة واضحة على ضرورة فهم الواقع ومراعاة ظروفه من قبل المجتهدين، فإن هذه المسألة لم تعط الاهتمام الكافي في تراثنا الفقهي، بدليل أن جمهور الفقهاء لم يعدوا معرفة أحوال الناس من الشروط الواجب توافرها في المجتهد ، وإن كان بعضهم قد أشار لها دون أن يعدها من شروط الاجتهاد، ونعتقد أنه آن الأوان لجعل هذه المعرفة اليوم شرطاً لازماً للفقيه ، ولاسيما في أيامنا الراهنة التي لم يعد فيها بمقدور الفقيه أن يجتهد في مختلف المسائل ، بسبب تفرع العلوم والتخصصات، ما جعل الحاجة اليوم ماسة لإعداد الفقيه المتخصص في فرع محدد من فروع العلم، كالاقتصاد أو الطب أو غيره، وذلك من خلال برنامج تعليمي جديد يتكون من مرحلتين ، يتعلم طالب العلم في المرحلة الأولى أصول الفقه ومسائله العامة، ويتوجه في المرحلة الثانية إلى التخصص المطلوب ، لكي يكون أقدر على التعامل مع الواقع تعاملاً صحيحاً .

والخلاصة .. لا يكفي أن تنحصر اجتهاداتنا بالنصوص في معزل عن الواقع، لأن الواقع هو الهدف الأساسي الذي نزلت النصوص من أجله، وهو كذلك الهدف الذي يسعى المجتهد لإيجاد حلول عملية لما يعانيه من مشكلات، وهذا يعني ألا نستغرق في الاجتهادات النظرية على حساب المشكلات الواقعية .

---

٢٣ - د.عبد المجيد السوسوه الشرفي : **الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي**، ص ٣١ ، سلسلة كتاب الأمة من مقدمة الكتاب للأستاذ عمر عبيد حسنة .

تكامل النصوص :

ونلاحظ خلال استقرائنا لنصوص القرآن الكريم أن الحكمة من النص غالباً ما تتعلق بمجموعة من النصوص ، وليس بنص واحد مفرد ، ولهذا فإن من الخطأ الفادح أن نبني تأويلاتنا على واحد من النصوص ونتجاهل بقية النصوص التي تتعلق بالموضوع نفسه ، لأننا في هذه الحال نكون كمن يقرأ فقرة من رواية طويلة ويعتقد أنه عرف كل تفاصيلها ومغزاها ، وكذلك هي النصوص ، فإننا لا يمكن أن نحيط بكل أبعادها ومراميها ما لم ندرس هذه النصوص في إطار المنظومة التي تنتمي لها ، وهذا هو الطريق الصحيح للوصول إلى تأويلات صائبة ، أو أقرب للصواب ، فالنصوص يرتبط بعضها مع بعض بعلاقات متبادلة، ومن خلال هذا الترابط تعطي النصوص دلالاتها ، وتظهر مقاصدها المختلفة ، أما عزل النص عن المنظومة التي ينتسب إليها فإنه يوصلنا في الغالب إلى نتائج بعيدة قليلاً أو كثيراً عن المقاصد الحقيقية للنص، وهذا ما يعمد إليه غالباً أصحاب المِلَل والنِّحَل المنحرفة ليبرروا بها مذاهبهم ويضفوا عليها ضرباً من الشرعية المزورة !

ولعل أقرب مثال يمكن أن نوضح من خلاله فكرة التكامل بين النصوص التي تشكل فيما بينها منظومات مترابطة تلك النصوص التي تنظم العلاقات الأسرية أو ما يسمى بـ (**الأحوال الشخصية**) مثل الزواج والطلاق والخلع والنفقة والميراث ونحوه، فعلى الرغم مما بين هذه الأحوال من تداخل كبير لا يخفى، فإننا نطالع في كتب الفقه أحكام كل حالة منها تحت باب منفرد، وكأن هذه الأحوال لا صلة بينها البتة، ونعتقد أن هذه الأحكام لو جمعت في منظومة واحدة لكانت أقرب إلى تحقيق مقاصد الشريعة، وأكثر تحقيقاً لمصالح أطراف العلاقة الأسرية من زوج وزوجة وأولاد، وعندئذ يظهر لنا الفارق الكبير ما بين الأحكام التي نخرج بها من خلال هذا الجمع والأحكام المعروفة في كتب الفقه ، وبهذا سنجد أنفسنا أمام أحكام تحقق المزيد من التوازن بين حقوق وواجبات كل طرف من أطراف العلاقة الأسرية .

وفي هذا دليل ناصع على جدوى النظر إلى النصوص في إطار المنظومات التي تنتسب إليها، بدل النظر إلى كل نص على حده وكأنه عالَم قائم بذاته، لاسيما وأن بعض النصوص تبدو متعارضة في ظاهرها، ويبدو بعضها ناسخاً بعضها الآخر ، وما هي في الحقيقة كذلك، بل الغالب أن كل واحد منها يشكل جزءاً من الصورة ، كالصورة التي يرسمها الرسام بالأبيض والأسود، وهما في الأصل لونان متباينان ، وكأن أحدهما يناقض الآخر، لكن عندما نضع كل لون في مكانه المناسب من اللوحة فإنها تبدو أجمل وأكمل، وكذلك هي النصوص عندما ننجح في التأليف بينها فإننا نخرج منها بأحكام أكمل وأنسب لواقع الحال .

النص والعقل : ومن الإشكاليات التي تتعلق بالنص أيضاً إشكالية العلاقة ما بين النص والعقل، أو ما يعبر عنه عادة بالعلاقة ما بين النقل والعقل، وقد برزت هذه الإشكالية في تراثنا الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة عندما دخلت الفلسفات

الوافدة دائرة اهتمام بعض الفلاسفة المسلمين، وبخاصة منها الفلسفة اليونانية التي كانت تعلي من شأن العقل وتجعله المرجع الأول - بل الوحيد - في فهم العالم .

وقد جاء على الفلاسفة المسلمين حين من الدهر أضحت فيه مسألة التوفيق بين النقل والعقل واحدة من أبرز المسائل التي انشغلوا بها آنذاك[٢٤]، وقد انتهى الجدل الطويل حول هذه القضية إلى أن كل ما جاء في القرآن الكريم وما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قطعاً لا يعارض صحيح المعقول ، وأن صحيح المعقول لا يمكن أن يعارض ما جاء في القرآن الكريم وما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما بيَّن شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله الذي خصص كتاباً كاملاً حول درء تعارض العقل والنقل ، وقد لخص الفقيه **ابن حزم** هذه القضية بأن كلُّ ما صَحَّ ببرهان فهو في القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم منصوصٌ مسطورٌ يَعْلَمُهُ كلُّ مَنْ أحْكَمَ النَّظَرَ وأيَّدَهُ اللهُ تعالى بِفَهْمٍ، وأما ما عدا ذلكَ مما لا يَصِحُّ ببرهانٍ إنما هو إقناعٌ أو شَغَبٌ، فالقرآنُ وكلامُ النبي صلى الله عليه وسلم منه خاليان[٢٥] ، وقد ناقش الفقيه الأندلسي **ابن رشد** هذه المسألة أيضاً وانتهى فيها إلى أن الخطاب الديني هو دوماً على وفاق مع ما يقرره العقل ، إما بدلالته الظاهرة وإما بتأويل[٢٦] .

ويرجع اهتمامنا هنا بالعلاقة ما بين النص والعقل إلى الحقيقة التالية وهي أنه كما يوجد لكل إنسان عقلية تميزه عن بقية البشر فإن لكل أمة كذلك عقلية تميزها عن بقية الأمم، وتتشكل عقلية الأمة عادة من خلال تفاعلها مع ظروفها التاريخية والاجتماعية والفكرية والبيئية، أي مع جملة الظروف التي تشكل ثقافتها (Culture) وبما أن النص الديني هو أهم مكون من مكونات الثقافة لما له من قداسة ومكانة خاصة عند الأمم ذات المرجعية الدينية، فإن دراسة العلاقة ما بين النص والعقل تصبح مطلباً أساسياً في إطار بحثنا هذا، لأننا من خلال تحديد هذه العلاقة في الثقافة الإسلامية يمكننا تحديد مواطن القوة ومواطن الضعف في عقليتنا الإسلامية، ومعرفة ما يرجع منها إلى النص وما يرجع منها إلى العقل، وبهذا يمكن أن نحوِّل مواطن الضعف إلى مواطن قوة، وأن ندعم مواطن القوة فنزيدها قوة إلى قوتها[٢٧] .

ولابد أن نشير هنا إلى التفاعل المتبادل ما بين ثقافة الأمة وعقليتها، فكما أن عقلية الأمة تتأثر بالثقافة وتتشكل من خلالها، فإن العقلية الناتجة عن هذه الثقافة تؤثر بطريقة راجعة فتعيد تشكيل ثقافة الأمة، ومن ثم فإن حالة الأمة تتقرر من خلال هذا التفاعل، فإذا كان التفاعل إيجابياً خلاقاً ارتقى بالأمة نحو الأفضل، وإذا كان سلبياً هبط بالأمة وجعلها فريسة للتخلف والانحطاط ووضعها على الطريق نحو الهاوية **!!**

---

٢٤ - انظر كتاب : د.عبد المجيد النجار (**خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**) الذي ناقش فيه هذه المسألة مناقشة مستفيضة جاءت في غاية التوفيق .

٢٥ - انظر كتابه : الإحكام في أصول الأحكام .

٢٦ - انظر كتابه : بداية المجتهد ونهاية المقتصد .

٢٧ - يمكن الرجوع إلى كتابنا (**أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**) سلسلة كتاب الأمة ، وزارة الأوقاف ، دولة قطر ١٩٩٠ ، وكتابنا (**العقلية الإسلامية بين إشكاليات الماضي وتحديات المستقبل**) دار الآفاق والأنفس ، دمشق ١٩٩٥ ، فقد ناقشنا بالتفصيل طبيعة هذه العلاقة بين النص والعقل، وأثر هذه العلاقة في تشكيل العقلية الإسلامية، وبيان أثرها كذلك في الثقافة الإسلامية .

وما يهمنا من هذه المقدمات أن بعض الذين خاضوا في إشكاليات العقلية الإسلامية كثيراً ما انتهوا عن قصد أو غير قصد إلى نتائج ملتبسة، فزعموا أن أهم سبب من أسباب تخلف العقلية الإسلامية عن بقية أمم الأرض هو خضوعها لسلطة النص[٢٨] ، فإن كان قصدهم بـالنص الوحي فإن دعواهم مرفوضة جملة وتفصيلاً ، لأن الوحي كله حق **(لا يأْتيهِ الباطِلُ من بينِ يديهِ ولا من خَلْفِهِ ، تَنْزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ)** سورة فصلت ٤٢ ، وأما إن كان قصدهم بالنص تلك العلوم التي أنتجها المسلمون عبر تاريخهم، من علوم الفقه والأصول والحديث والتفسير والتاريخ وعلم الكلام والفلسفة وغيرها، فإننا نوافقهم مع شيء من التحفظ، لأننا نؤمن بأن هذا التراث لا يعدو أن يكون إنجازاً بشرياً يمكن أن يعتريه ما يعتري أي إنجاز بشري آخر من علل أو قصور، ومن ثم فهو بحاجة ما بين فترة وأخرى لإعادة النظر فيه، ومراجعته مراجعة نقدية فاحصة، على ضوء المستجدات التي تطرأ على حياة الأمة والعالم، من أجل إعادة تشكيل هذا التراث بما يناسب تبدل الزمان والأحوال، وإلا أمسى التراث عائقاً أمام تفاعل الأمة الخلاق مع العصر الذي تعيش فيه .

وبمعنى آخر .. فإن النص السماوي يشكل العمود الفقري لثقافة الأمة ، وهو يؤثر تأثيراً عميقاً في تشكيل عقليتها ، وتنشأ الإشكالية هنا عندما يحل التراث ـ الذي هو إنجاز بشري ـ محل النص السماوي ، وتنتقل القدسية من النص إلى التراث ، وللخروج من هذه الإشكالية التي تجعل النص أسيراً للتراث لابد أن نعطي العقل حقه في التمحيص والمراجعة في سبيل تحرير النص من قيود التراث ، لكي يستعيد النص طلاقته الأولى ، ويعود مرة أخرى للتأثير والفعل في حياة الأمة .

النص وحرية الرأى :

والحديث عن (النص) يطرح أمامنا إشكالية أخرى قد لا يكون لها علاقة مباشرة بالنص، إلا أنها تعد من الإشكاليات التي تؤثر تأثيراً كبيراً في موقفنا من النص ، ألا وهي (حرية الرأي) ومع أننا نفخر نحن المسلمين بأن ديننا الإسلامي قد أعلى من شأن الحرية فجعلها شرطاً من شروط التكليف الشرعي ، ونادى بتحرير الإنسان مادياً ومعنوياً من أي ضغط أو إكراه ، فإن فترات غير قليلة من تاريخنا الإسلامي قد شهدت مصادرة للحريات بصورة تدعو للاستغراب حقاً ، ولاسيما منها مصادرة حرية الرأي ، مما أثر تأثيراً كبيراً على الكثير من قضايانا الحيوية ، وترك بصماته القاتمة على فترات غير قصيرة من تاريخنا الفكري !

وإذا كان بعض الساسة قد تولوا كبر هذه الفعلة في البداية، فإن نخبة من أهل الفكر والرأي والعلماء لم يتورعوا عن الانخراط فيها بعد ذلك، وهنا تكمن المعضلة الكبرى، فهؤلاء الذين كان ينتظر منهم أن يقفوا في وجه الإرهاب السياسي ويناصروا حرية الرأي لم يجدوا حرجاً في الانضمام إلى السلطة السياسية طمعاً في الترويج

---

[٢٨] - انظر بصورة خاصة كتاب (بنية العقل العربي) لمؤلفه محمد عابد جابري .

لأفكارهم ومذاهبهم، وقد غاب عن أذهانهم أن الإرهاب الفكري الذي مارسوه ضد غيرهم سوف يرتد إلى نحورهم ويمارس ضدهم ولو بعد حين !

وليست قضية (**المعتزلة**)[٢٩] فريدة في هذا السياق، فقد تبنى المعتزلة في أخريات القرن الأول الهجري عدداً من الأفكار الجديدة الغريبة عن الأفكار المطروحة على الساحة الإسلامية يومذاك، ومنها على سبيل المثال فكرة (**خلق القرآن**) التي أراد المعتزلة فرضها على الأمة بالقوة واستعانوا على ذلك بقوة السلطان لكي يضمنوا الشرعية اللازمة لأفكارهم، ولسنا هنا بصدد تفنيد ما طرحه المعتزلة من أفكار، وإنما نورد هذه القضية التاريخية لتقرير أننا ضد فرض آرائنا على الآخرين مهما اعتقدنا فيها العصمة والصواب، لأن فرض الرأي على الآخرين قد يؤدي إلى أن تسود في المجتمع أفكار غير صائبة ثم تصبح جزءاً لا يتجزأ من تراث الأمة، وهنا تكمن المعضلة الأخطر التي لا يمكن الوقاية منها إلا بفتح ساحة الحوار للجميع لكي يعبروا عن أفكارهم في إطار القواعد العلمية المتعارف عليها، فهذه هي الوسيلة الأسلم التي يمكن أن تنير للأمة طريقها وتحميها من النزاع والخلاف والصراع .

هذا، مع التذكير بأن القمع وفرض الرأي بالقوة على الآخرين، قد يَحْرِم الأمة من أفكار مبدعة يمكن أن تنتشلها من حالة الضعف والتخلف والانحطاط وتدفع بها إلى الأمام، ولا ندري كم خسرنا عبر تاريخنا الفكري من جراء الاضطهاد الذي تعرَّض له بعض علمائنا الأفذاذ الذين أجمعت الأمة على علمهم وفضلهم وصلاحهم، من أمثال الفقيه الأندلسي **ابن رشد** الذي حوكم علناً على بعض أفكاره، ومنع من التدريس، وطرد من مسجد قرطبة، ونفي وهو في السبعين من عمره ليعيش في قرية الليسانة ذات الأغلبية اليهودية منبوذاً محطم القلب، على الرغم من أن بعض مؤلفاته تعد عمدة في الفقه والطب والفلسفة !

ولم يكن حال شيخ الإسلام **ابن تيمية** أفضل حالاً من ابن رشد، فهذا العالم الجليل الذي يعد أحد كبار المجددين في تاريخ الفقه الإسلامي اعتقل وعذِّب بحجة ضلاله وفساد عقيدته، وبالغ سجانوه بإهانته فعزلوه ومنعوا عنه القرطاس والقلم لكي يسكتوا صوته نهائياً، وظل على هذه الحال حتى مات سجيناً في قلعة دمشق !

ولم تكن حال سلطان العلماء **العز بن عبد السلام**[٣٠] بأفضل من سابقيه، فقد صدرت ضده فتوى من علماء عصره بإهدار دمه وإدانته بالكفر، لمواقف وقفها، أو أفكار قالها، أو مؤلفات أصدرها، أو فتاوى ذهب إليها ولم تعجب بعضهم !

---

٢٩ - **المعتزلة :** فرقة كلامية ، ظهرت في أخريات القرن الأول الهجري ، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول ، ويرجع اسمها إلى أن إمامها واصل بن عطاء اعتزل مجلس الحسن البصري لاختلافهما حول مرتكب الكبيرة ، فقد ذهب واصل إلى أن مرتكبها ليس كافراً ولا مؤمناً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وقد رد المعتزلة على كثير من الفرق الضالة كالثنوية والجبرية والمشبِّهة وغيرهم .

٣٠ - **العز بن عبد السلام** (١١٨٠ - ١٢٦٠) : فقيه مجتهد ، ولد في دمشق ، وتولى التدريس والخطابة في الجامع الأموي ، ثم انتقل إلى مصر حيث ولي القضاء والخطابة ، من تصانيفه : قواعد الأحكام في مصالح الأنام، والفتاوى ، والتفسير الكبير .

ولكي لا تتكرر مثل هذه المآسي الفكرية في مستقبلنا الفكري ينبغي أن نحترم الرأي الآخر، وأن نعطيه الفرصة لكي يعبر عن نفسه في حرية تامة حتى وإن بدا مخالفاً للآراء السائدة أو شاذاً عنها، ولا يجوز منعه من التعبير عن فكره إلا في حالة واحدة، وهي أن يحاول فرض أفكاره على الناس بالقوة، فعندئذ فقط يسوغ منعه من ومواجهة قوته بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك .

ولنتذكر دوماً أن الأفكار العظيمة عبر التاريخ كثيراً ما كانت محل رفض واستنكار واستهجان في بادئ الأمر، وهذا ما حصل للأنبياء جميعاًعليهم السلام مع أقوامهم، بل إن بعض الأقوام قتلوا أنبياءهم بحجة أن ما جاؤوا به يخالف ما تعارف عليه الناس وما وجدوا عليه آباءهم، ولعل الدرس الأهم الذي نستفيده من هذه الظاهرة البشرية أن الأفكار الجديدة غالباً ما تكون مرفوضة ومستهجنة في بادئ الأمر، وهذا هو حال كل الأفكار العظيمة التي غيَّرت وجه العالم، ومن ثم فإن ظهور تأويل جديد غير معهود لنص ما من النصوص ينبغي أن ننظر إليه نظرة علمية هادئة قبل الحكم عليه، لأنه قد يكون فتحاً كبيراً في فهم النص، لاسيما وأن تأويل معظم النصوص لا ينتهي عند حد كما أسلفنا، ناهيك عن أن في نصوص القرآن الكريم من الإعجاز المضمر ما لا تنتهي عجائبه، وأكبر دليل على هذه الحقيقة ظاهرة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة التي جددت – في عصرنا - نظرتنا القديمة لكثير من النصوص .

ونفعل خيراً إن نحن تركنا لكل رأي جديد أن يعبر عن نفسه في حرية تامة، مع مطالبة صاحب هذا الرأي أن يقدم البرهان على ما يقول، عملاً بالتوجيه القرآني الحكيم (**قُلْ هاتُوا بُرهانَكُم إنْ كنتُم صَادقين**) هذا التوجيه الرباني الذي يضع أهم قاعدة من قواعد العلم، وهي المطالبة بالبرهان، فإذا قدم صاحب الرأي برهانه العلمي قبلنا منه ذلك، وإن لم يفعل فقد حكم هو بنفسه على رأيه بالفشل .

((وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين))

***